الفصل الخامس

فِطرة الله التى فطر الناس عليها

الاسلام دين ، وليس فلسفة :

ان الاسلام ليس واحدا من هذه النظم الفلسفية ، الانسانية ... انه ليس رأسمالية ، ولا شيوعية ... انه دين الله .

١ ـــ انه عقيدة . وايمان بالله ... يطيعه المؤمن حرا مختارا ، ولا يسأل عن سبب فيما يطيع ، ولا يرجو غاية لما يفعل سوى وجه الله تعالى .

ايمان المؤمن ، وعقيدته ، هو هدفه الأول فى الحياة ، يجب عليه من قبل دينه أن يحافظ على هذا الهدف ، ويقاتل فيقتل فى سبيله ، وينفق ماله فى سبيله ، ويضحى بولده فى سبيله ، ويهاجر فى سبيله .

فليس الايمان وسيلة لغاية أخرى فى حياته الدنيا ... ليس مصدرا لرزق فى مهنة ، ولا طريقا لجاه ، ولا سبيلا لقيادة أو زعامة ، أو ولاية .

حياة المؤمن تعبير عن ايمانه :

- سلوكه الانسانى تعبير عن هذا الايمان ،
- انفاقه تعبير عن هذا الايمان ،
- سعيه للعمل تعبير عن هذا الايمان ،
- اتقانه للعمل تعبير عن هذا الايمان ،

obeikandi.com

● ولاؤه للمؤمن تعبير عن هذا الايمان ،

● مشاركة فى الحرب ، والسلام ، تعبير عن هذا الايمان ،

... انه دين يحتم الطاعة والاخلاص فيها ، ويمنع الجدل واللجاجة فيه ... انه أوامر ونواه ، يتكفل ضمير المؤمن باتباعها وتنفيذها .

... انه خشية من الله فى نفس المؤمن ، تدفعه من غير رقابة خارجية نحو الاستقامة والسلوك السوى ... انه حب لله يملأ قلب المؤمن : فان أحب انسانا آخر أحبه لله ، وان كرهه كرهه فى الله ، وان عمل فارضاء لله ، وان تجنب أمرا تجنبه تقربا الى الله .

... ان الدين جملة من القيم ،
وتطلع الى هذه القيم ،
ومحاكاة لها ،

ومحاكاة هذه القيم تطبيق لانسانية الانسان .

... انه : الله ، وعبادة الله ، والعمل الصالح .

ان الله فى الدين هو الكمال المطلق ... هو البقاء والخلود ... هو الموجود الذى لا يتغير ... هو القوة اللانهائية ... هو العلم اللا نهائى ... هو الحياة اللا نهائية ... هو العدل المطلق ... هو الرحيم والجبار ... هو المعز والمذل ... هو الملك ... هو الذى لا يسئل عما يفعل .

ومن أجل ذلك كان الله معبودا لذاته ، ومرجوا لذاته .

وارتباط المؤمن به يتبع درجة ايمانه ، ولكن لا يتبع عهدا دون عهد ، ولا وقتا دون وقت ، ولا حاكما دون حاكم .

... انه الأمل الدائم فى حياة المؤمن ، ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .. أما الفلسفة — أى اتجاه فيها ، أو أية مدرسة فيها — فانها صنعة انسان ، وتتبع مفكرا بعينه ... تحتمل الخطأ والصواب ، وتحتمل الرفض والقبول ، وتحتمل التطبيق فى الحياة والبقاء فى البرج العاجى ... لا ينزل ايمان بها الى التطبيق ، انما الذى ينزل بها مجال العمل هو القانون فى صحبته السلطة التنفيذية ... وهى قوة للجبر والالزام .

وقوة أى اتجاه فلسفى هى فى مدى انسانيته ... فى منطقه ، وفى القيم التى يوضحها ويدعو اليها . ولكن مع ذلك لا يفارقه الطابع العام للفلسفة ،

والدين ان تحول الى فلسفة أخذ طابعها . ومن أجل ذلك كان : الفقه الاسلامى قابلا للخطأ والصواب ، وقابلا للقبول والرفض ، وقابلا للتطبيق والبقاء فى مجال النظر .

والفلسفة لا تتحول الى عقيدة الا اذا اتصلت بعقيدة قائمة ، وترسبت على أساسها فى النفوس . وعندئذ لا تجادل ولا تناقش من المعتقد بهــا ، وانما تطاع دون سؤال ، ويبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال .

ومن هنا كان للاسلام — كدين — طابعه الخاص ، وكان للفلسفة التى تساند أيا من النظامين : الرأسمالى أو الاشتراكى ، طابعها الخاص كذلك وفرق بين الطابعين ، مهما كان هناك من قرب ، أو بعد ، بين الأمرين .

٢ — أيضا : ان الاسلام ليس واحدا من هذه النظم الفلسفية ، لاختلاف أسس النظر ، وأصول التفريع .

فالاسلام ، كدين ، يربط الأرض بالسماء ، ويصل الانسان بالله .

والفلسفة هنا ، كاتجاه فكرى انسانى ، تستقل عن السماء ، وتجعل من الانسان أصلا للوجود .

وبينما الاسلام يجعل الله محور كل أمر ونهى ، وغاية كل شىء ، اذا بالفلسفة هنا تجعل الانسان هدفا ، أو سبيلا الى هدف آخر ، أدنى منه ، وأعز منه :

فاذا استهدفت الفلسفة الاشتراكية الانسان ، فالرأسمالية تجعله وسيلة للمال . والمال أدنى من الانسان فى واقعه ، ولكنه أعز منه فى نظرة الرأسمالية اليه .

فجعل الاسلام أحد النظامين — بغض النظر عن الاتفاق فى الموضوع والمبادىء ، أو الاختلاف فيها **سيجعل خلطا بين نظامين مختلفين فى التأصيل .** وهذا بدوره يجعل لبسا فى الفهم وفى التطبيق معا .

٣ — كذلك فان الدين بما صحب الاعتقاد به من ضمانات هى : الايمان بالله ، والخشية من الله ، ورقابة الضمير ، يجعل تنفيذ أوامره ونواهيه سهلا ميسورا ، وتضيق تبعا لذلك مجالات التحايل والخداع فى التطبيق .

... بينما الاتجاه الفكرى الفلسفى لا يشق طريقه الى الحياة العملية الا بقوة القانون ، وقوة الرقابة على تنفيذه . وقلما تتغلب هاتان القوتان على التحايل أو الخداع فى التنفيذ .

فلو حكم على الاسلام بانه رأسمالى ، أو اشتراكى — بدون نظر الى الاتفاق أو الاختلاف فى التوجيه والاتجاه — لفقد الاسلام هذه الضمانات ، ولم يفد منها فى الوقت نفسه أحد النظامين الفلسفيين ...

... وليس الرأسمالية :

ان الاسلام من حيث كونه نظاما لحياة الانسان المؤمن به ، يختلف عن نظام الرأسمالية فى كثير ، بل ربما يطلب محاربة هذا النظام واسقاطه من حياة المجتمع الانسانى :

اذا كانت الحرية الفردية أساس النظرة الرأسمالية ، وهى من الأصول المرعية فى النظام الاسلامى — فان الفارق بين النظامين هو :

● أن الحرية الفردية فى النظام الرأسمالى توصل بانطلاقها ، وبسيطرة الأنانية عليها ، الى استغلال المال للاعتبار الانسانى ، والى احتكار المال نفسه ، وعدم اطلاق تداوله بين الناس ، مما يترتب عليه انقسام المجتمع ، بل ربما محاربة بعضه بعضا ، كما يترتب عليه بالتالى ضياع العدل والتوازن ، فضلا عن احلال الحقد والنفرة ، محل المحبة والمودة بين الأفراد ، فى علاقات بعضهم بعضا .

● أما الحرية الفردية التى يرعاها الاسلام فهى حرية مشروطة بالمصلحة العامة التى شعارها : **لا ضرر ولا ضرار** . وفى واقع الأمر هى : مشروطة بالحدود الاسلامية ، وهى تلك الحدود التى ترعى كل فرد واعتباره ، لا كفرد فحسب فى بناء المجتمع ، وانما أيضا كممثل للمجتمع كله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ... »

● الرأسمالية ليست هى الحرية الفردية فى ممارسة المال والنشاط فيه ، وان قامت عليها ، ولكنها فى الواقع طغيان المال فعلا والسيادة به ، على منافذ المجتمع كلها ، والاستزادة فى هذا الطغيان .

انها اسعاد القلة على حساب شقاء الكثرة ... انها لا تعرف قربى فى الانسانية ، ولكنها تعرف تجميع الربح من عمل الانسان ، تاركة له العسر فى يومه ، والقلق على غده ، والحقد من أجل جهده ، والمذلة بسبب حرمانه من المال ، وحرمانه من مبادلة الأحاسيس الانسانية .

● الحرية الفردية فى الاسلام أصل وهدف ... يحافظ عليها ويسعى لها :

فتحريم الاسلام للشرك فى العبادة قصد به تحرير الانسان من

الخضوع الى ما لا يضر ولا ينفع ان كان صنما ، أو ما يشبهه من موجودات الطبيعة التى هى أدنى منه ، ومن الانحناء فى غير مناقشة لمثله فى الاعتبار ، ومثله فى التوقيت فى البقاء ، كالانسان . ((**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا**))(١) .

وعدم الاكراه فى الدين فى قوله تعالى : ((**لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى**))(٢) ... هو للمحافظة على الحرية الفردية فى الاقتناع والايمان ، ودفعا لأى حرج فيهما .

واذا كان الاسلام يحافظ على الحرية الفردية فى مجال يخصه هو ، فمن باب أولى ان يحافظ عليها ، وينشدها فى جوانب أخرى من حياة الانسان .

واذا جعل الاسلام نصيبا من الزكاة الواجبة ، والتى هى عبادة وقربى الى الله ، لتحرير الأرقاء من الأفراد أو المجموعات فى قول القرآن : ((**... وفى الرقاب ...**))(٣) ... فذلك حرص منه على تمتع كل فرد فى المجتمع الاسلامى بحريته الفردية .

وكأن بقاء بعض أفراد المجتمع معطلة حريتهم الفردية ، بسبب لم يملكوه هم ، ... وربما كان بسبب طغيان القوة أو اعتداء الجاه — ينقص من قيمة المجتمع نفسه ، ويضعف فاعليته : ان فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، أو فى تضامن المجتمع وتماسكه .

... الحرية الفردية فى الاسلام ، كنظام للحياة الانسانية ، لا تصل بممارسها الى طغيان واعتداء على انسان آخر : ان بسبب المال ، أو جاه السلطة ، أو قوة العصبية ... لأنها للفرد المؤمن بالاسلام ، وهو المؤمن بحدود الله ، والمنفذ لها بوحى ضميره بدون رقابة من خارج عنه . فان تعداها فليس هو المؤمن الذى له هذه الحرية الفردية ، أو التى يحرص الاسلام على أن يباشرها الفرد ، ولو فى تقييم رسالته الخاصة :

((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين))(٤)

ان المؤمن الذى له هذه الحرية الفردية هو الذى يجعل كتاب الله فيصلا فى حياته ، ولا يجد أى حرج فى نفسه عند تطبيقه ، ويسلم تسليما لا يشوبه

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) البقرة : ١٧٧ ، التوبة : ٦٠ (٤) النساء : ١٤

جدل ولا تردد : ((**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**))(١) .

● اذا كانت الملكية الفردية أصلا ، لا يعتدى عليه بحال ، من أصول النظام الرأسمالى ، فالاسلام يرى : أن الملك ليس خالصا للأفراد المالكين وحدهم . وانما تعلق بملكهم حق الله فيه ، بناء على : أن المالك الحقيقى هو الله وحده ، والأفراد هم المباشرون للملك بمقتضى استخلافهم عليه .

ومن هنا يختلف النظام الرأسمالى اختلافا جوهريا ، عن النظام الاسلامى فى النظرة الى الملك والاقتناء .

فنظرة الرأسمالية تطلب من الدولة حماية حق الفرد فى التملك ، وحماية استثمار المال ... بينما نظرة الاسلام تطلب من الدولة رعاية حق الله فى ملكية الفرد ، اذا لم يرعها المالك بنفسه .

وليس معنى نظرة الاسلام الى المال على هذا النحو : أن لا يكون هناك ملاك أغنياء فى المجتمع الاسلامى على نحو ما يصير اليه الوضع فى المجتمع الرأسمالى من مباشرة الحرية الفردية فى التملك . قد يكون هناك ملاك أغنياء فى المجتمع الاسلامى ، وربما فى مستوى الملاك الأغنياء فى المجتمع الرأسمالى ، الا أن الفرق هو : أن المالك الغنى فى المجتمع الاسلامى لا يصير الى خصائص صاحب الاقطاع ، أو خصائص صاحب رأس المال فى النظام الرأسمالى . وذلك بمقتضى حق الله فى ماله ، وبمقتضى رعاية حدود الله فى مباشرة الأموال ، وبمقتضى الايمان : بأن الدنيا دار ممر لدار ثانية هى المقر الدائم(٢) .

* * *

---

(١) النساء : ٦٥

(٢) من أصحاب الثروات والمال فى الاسلام :

● **عثمان بن عفان**

ما خلف :

كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل :

(١) ٣٠,٥٠٠,٠٠٠ درهم ،

(٢) ١٠٠,٠٠٠ دينار فانتهبت وذهبت .

(٣) وألف بعير بالربذة .

(٤) وصدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادى المعرى قيمتها مائتى ألف دينار (الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٧٦ ط بيروت) =

= ● **الزبير بن العوام**

قال عبد الله بن الزبير :

.... وقتل الزبير ولم يدع دينارا ولا درهما الا :

(١) أرضين فى الغابة . (٢) واحدى عشرة دارا بالمدينة .

(٣) ودارين بالبصرة . (٤) ودارا بالكوفة . (٥) ودارا بمصر .

وقال عبد الله . فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفى ألف ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ .

وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف فباعها عبد الله بن الزبير بألف ألف وستمائة ألف .

وكان للزبير أربع نسوة . ولكل ربع الثمن فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائة ألف ١٫١٠٠٫٠٠٠

قال : فجميع ماله : خمسة وثلاثون ألف ألف ومائتا ألف ٣٥٫٢٠٠٫٠٠٠

حدثنا سفيان بن عيينة قال : اقتسم ميراث الزبير على أربعين ألف ألف

وعن هشام بن عروة عن أبيه . قال : كانت قيمة ما ترك الزبير واحدا وخمسين أو اثنين وخمسين ألف ألف .

وعن عروة قال : كان للزبير بمصر خطط . وبالاسكندرية خطط . وبالكوفة خطط . وبالبصرة دور . وكانت له غلات تقدم عليه من أعراض المدينة . (الطبقات الكبرى جـ ٨ ص ١٠٩ . ١١٠ ط بيروت)

● **عبد الرحمن بن عوف**

كان ممن يفتى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان بما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم ...

(الطبقات الكبرى جـ ٨ ص ٣٤٠ ط بيروت)

عن عثمان بن الشريف قال : ترك عبد الرحمن بن عوف :

ألف بعير . وثلاثة آلاف شاة بالبقيع . ومائة فرس ترعى بالبقيع . وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحا . وكان يدخل قوت أهله من ذلك سنة .

وعن عارم بن الفضل بسنده : أن عبد الرحمن بن عوف توفى وكان فيما ترك ذهب قطع بالفئوس حتى كلت أيدى الرجال منه :

وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفا .

عن صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : أصاب تماضر بنت الأصبغ ربع الثمن فأخرجت بمائة ألف وهى احدى الأربع .

وأخبر الفضل بن دكين أبو نعيم بسنده قال : مات عبد الرحمن بن عوف وترك ثلاث نسوة فأصاب كل واحدة مما ترك ثمانون ألفا .

● **سعد بن أبى وقاص**

وترك سعد يوم مات مائتى ألف وخمسين ألف درهم . (الطبقات الكبرى جـ ٩ ص ١٤٩)

=

● ان المـــال فى النظام الرأسمالى هدف وغاية ، يتطلع اليها ويسعى نحوها . وقد يكون غاية تحمل على استباحة كل الوسائل ، مهما كان أمرها ونتائجها فى ســبيل الحصول عليه وفى ســبيل تملكه ، أو فى ســبيل زيادته وتنميته .

ولكن فى النظام الاسلامى ينظر الى المـــال : على أنه : ان كان متـــاعا وزينة لهذه الدنيا ، فهو فتنة يخشى خطرها ، ويحتاط فى اقتنائها .

وعلى أية حال ليس المـــال فى الاســـلام هدفا ولا غاية . انما هو نفسه وسيلة ، لاستمرار بقاء الانسان .

أما غاية الانسان وهدفه فى هذه الحيـــاة فى نظر الاســـلام ــ تطبيقا للرسالة الالهيـــة ــ فهو مكافحة الشر والبـــاطل ، والوقوف بجـــانب الخير والحق . لأن الله نفسه هو الخير ، والحق ، والكمال .

ومن هنا يمكن أن يقال : ان النظام الرأسمالى نظام مادى ، يسعى الى المـــال كغاية .

... بينما النظام الاسلامى نظام انسانى ، يسعى الى المـــال كوسيلة لغاية انسانية ، هى نصرة الحق ضد البـــاطل ، ونصرة الاســـتقامة ضـــد الانحراف ، ونصرة الجانب الانسانى فى الانسان ضد الجانب الحيوانى فيه .

فنظرة الاسلام الى المـــال تختلف اذن عن نظرة النظام الرأسمالى .

= ● **طلحة بن عبيد الله**

قتل طلحة بن عبيد الله يرحمه الله وفى يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتـــا ألف درهم ٢٫٢٠٠٫٠٠٠

وقومت أصوله وعقاره بثلاثين ألف ألف درهم ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ .

قال عمرو بن العاص : حدث أن طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار ، فى كل بهار ثلاث قناطر ذهب ، وسمعت أن البهار جلد ثور . (الطبقات الكبرى جـ ٩ ص ٢٢٢ ط . بيروت)

وسأل معاوية : كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين ؟

قال موسى بن طلحة : ترك ألفى ألف درهم ومائتى ألف دينار ، وكان ماله قد اغتيل .

وكان يغل كل سنة من العراق ألفا سوى غلاته من السراة وغيرها .

ولقد كان يدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم من مزرعة بقنـــاة كان يزرع على عشرين ناضحا ، وأول من زرع القمح بقناة هو (الطبقات الكبرى جـ ٩ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢)

وما يتفق الاسلام فى تقييمه مع النظام الراسمالى ، كالحرية الفردية ، يختلف معه بعد ذلك فى دائرة هذه الحرية ، وكذا فى طرق ممارستها وهدفها.
فاذا قيل بعد ذلك :

ان الاسلام نظام رأسمالى ، فكأنه قيل :

ان الاسلام نظام مادى فى الحياة ،

وان الاسلام يجعل الدنيا غاية أخيرة ،

وان الاسلام يرفع الوجود الالهى من شئون هذه الحياة ،

وان الاسلام يجعل مقياس الانســان فيمــا يملك من مال ، وليس فى انسانيته عن طريق تقواه وتقربه الى الله .

وعندئذ يكون الاسلام صنع بشر ، وليس دينا لله ... وليس رســالة لسلامة البشرية وخيرها .

... وليس المــاركسية الشيوعية :

وليس الاسلام كذلك هو الاشتراكية المــاركسية اللينينية :

لأن له خصــائص الدين وطابعه ... بينمــا المــاركسية اللينينية — كاتجاه فكرى فلسفى — لها خصائص الفلسفة وطابعها .

ثم بعد ذلك : فان الاسلام ينكر فى المــاركسية اللينينية أو فى الشيوعية أو ما ينكر :

- عدم ايمانها بالله .
- والغاء حق الملكية الفردية كأصل دائم من أصولها .
- وجعل الفرد تابعا للمجتمع فى وجوده واعتبــاره ... فى حــريته وتفكيره .

فعدم ايمانها بالله وبرسالته ، ووضعها العلم بديلا عن الله فى العبودية، والمعمل بديلا عن المعبد فى القداسة يرفع وجود الدين فى نظرها من الحياة الانسانية ... هى تؤمن بالالحاد العلمى ، وبالتربيــة الالحادية العلميــة ، وبالاشتراكية العلمية ...

والاسلام كدين ، لا يقر وجود ما ينكره أو يلغى اعتباره .

ثم هو من جانب آخر لا يقر فصل الأرض عن السماء ، ولا عزل القيم التى جاء بها عن حياة الانسان . كما لا يقر كذلك أن يكون العلم معبودا ، والمعمل محرابا للعبادة . لأن العلم صنعة انسان مهما دق الانسان فى اختباره ، ومهما أحاط فى تفكيره ، فانه الانسان المحدود الذى كونته بيئته . وظروف حياة مجتمعه .

ولذا يستحيل أن يكون ((العلم)) هو الموجود الكامل فى الوجود ، وبالتالى يستحيل أن يكون المعبود . وأولى بالانسان عندئذ أن يعبد نفسه وليس أثرا من آثاره .

واذا ألغت الشيوعية وجود الله فى حياة الانسان ، فهى لا تلغى فى واقع الأمر سلطة لكنيسة ، ولا سلطة لطائفة معينة تنتسب الى الدين وتحترف به، وانما تلغى القيم والمثل العليا فى حياة الانسان ... أو بعبارة أخرى تلغى الاعتبار الانسانى والوجود الانسانى فى الانسان نفسه .

وبالغائها حق الملكية الفردية تلغى اعتبار جزء فى طبيعة الانسان الحيوانية ، وهو الجزء الخاص بالمحافظة على البقاء الفردى أو النوعى له . فليس السعى نحو التملك والاقتناء الا ضرورة فى الانسان ، اقتضتها طبيعة المحافظة فيه على بقائه .

والاسلام لا يدعو الى الغاء الطبيعة البشرية فى أى جانب من جانبيها . الانسانى ، والحيوانى ، ولا يدعو أيضا الى الغاء جزء من جانب منهما . والا لم يكن دينا للطبيعة البشرية ، بل كان لطبيعة أخرى تتمشى خصائصها مع تعاليمه عندئذ .

وكل ما يدعو اليه الاسلام هو توجيه الطبيعة البشرية حسب خصائصها، لا ينكر منها ولا يلغى بل يقرها جميعها ، ويستهدف فقط التوازن بين انسانية الانسان وحيوانيته .

ثم بنظرة الشيوعية الى المجتمع على أنه : الأصل ، يتبعه الفرد فى الوجود والاعتبار ، وفى الحرية والتفكير ، تجعل أساس التقييم تصورا ذهنيا ، وليس أمرا واقعيا . فالمجتمع لا وجود له وجودا حقيقيا الا فى أفراده. والأفراد وحدهم هم أصحاب الوجود الذاتى والواقعى . والمجتمع الذى يسقط اليوم ، والمجتمع الذى يقوم غدا بديلا عنه هو اعتبار تصورى لا يتجاوز دائرة النظر وحدها . لأن الذى يسقط ، والذى يقوم بديلا عنه هو قيم لا أفراد ، وأهداف تستهدف وليس أشخاصا تصنع .

وبناء على ذلك تتخذ من نظرتها هذه الى المجتمع ، تبريرا للحد من حرية الفرد فى أى جانب منها ، توفيرا لحرية المجتمع !. وهذا فضلا عن أنه تناقض فى نفسه ، يذهب بالقيمة الأساسية فى الانسان وهى حريته الخاصة ، أو حريته الفردية والشخصية .

... هو تناقض : لأن الانتقاص من حرية الفرد أى فرد لا يعود عليه ثانية بتوفير الحرية له تحت أى اسم وأى عنوان . اذ الحرية الفردية صفة دائرة مع كل فرد فى المجتمع . وليست صفة لبعض أفراد فيه على التعيين ، دون بعض أفراد آخرين على التعيين أيضا .

... ثم هذه النظرة الى المجتمع اذهاب بالقيمة الأساسية فى الانسان ، وهى حريته الفردية . لأن الفرد اذا منع من التعبير عن تفكيره ، ومنع من الاستجابة لغرائزه الرئيسية : لغريزة الملكية ، فليس له الا أن **يستقبل** فقط ، وليس الا أن **يقاد** فقط ، وليس له الا أن **يتبع** فحسب . وعندئذ ليس هو الانسان صاحب السيادة ، وصاحب الرسالة فى وجوده على هذه الأرض .

الاسلام اذ ينكر تلك النظرة الى الانسان ، ينكرها لأن رسالته جاءت تكليفا لهذا الانسان بأن يكون من جنود الله ، وهم جنود الحق . ومهمتم أن ينصروه ، وأن يؤازروه . ومن لم تكن له صفة القيادة ، ومن لم يخرج عن وضع « التبعية » لا يستطيع أن يؤدى رسالة الحق ، وهى رسالة الله ، ولا يستطيع أن يقاوم الباطل . ومقاومة الباطل هى مقاومة الشيطان .

ومن لم تكن له سيادة على نفسه أولا ، لا يمكن أن يكون نصيرا للحق ثانيا . لأن فقدانه السيادة على نفسه ، يفقده الصلاحية لفهم الحق ، فضلا عن مؤازرته .

ولن تكون للانسان سيادة على نفسه الا اذا أدرك قيمة ذاته ، ودرب نفسه على الوقوف فى وجه شهواته . ويستحيل على أى انسان أن يدرك ذاته ، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يعبر عن تفكيره ولا عن ايمانه .

ان الانسان على سبيل الحقيقة تفكير . والتفكير على سبيل الحقيقة تعبير عنه ، والتعبير عن الفكر على سبيل الحقيقة هو حرية الرأى ، وحرية الرأى هى المقوم الأساسى للحرية الفردية .

... وليس الاشتراكية العربية .

● وليس الاسلام هو الاشتراكية العربية . وليست الاشتراكية العربية بالتالى هى الاسلام . لأن الاسلام دين له خصائص الدين والعقيدة

... بينما الاشتراكية العربية فلسفة لها طابع الفكر الفلسفى وخصائصه . هذا من جهة .

● ومن جهة أخرى لو كان الاسلام هو الاشتراكية العربية ، لانحصرت قيمته وموضوعيته فى الأسس التى اتخذتها الاشتراكية العربية نظاما للحكم ، وهى تلك الأسس التى صاغتها قوانين يوليو سنة ١٩٦١ الاشتراكية ، ولأصبح عبارة عن الاجراءات الملزمة بخصوص المال ، والانتاج والعمل — التى اقتضتها ضرورة الظروف التى هيأت لقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وما أعقبها من تشريعات تنظيمية ، انتهت بقوانين يوليو سنة ١٩٦١ .

والاسلام وان كان يرى هذه الاجراءات لصالح المجتمع ، وضمان بقاءه ، واعادة تضامنه وتماسكه ، **فانه ليس هى** لأنه يراها اجراءات طارئة لاصلاح حال معينة ، تبقى ببقاء حاجة تلك الحال المعينة الى اصلاح ، ثم يعود الأمر الى الوضع الطبيعى للمجتمع .

اذ الاسلام فى نظرته الأصيلة هو :

دعوة ،

وايمان بالدعوة ،

واستمرار فى الدعوة .

... هو دعوة الى القيم والمثل التى تحملها رسالة الله ، والتى هى السلام للانسانية .

... وهو ايمان بهذه القيم والمثل ، يحمل على العمل طبقا لها فى السلوك ، حتى يكون العمل ترجمة له وتعبيرا عنه .

... وهو استمرار فى هذه الدعوة : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** »(١) .
لأن الطبيعة البشرية فى شأنها تتردد بين الغريزة والعقل ... بين الهوى والحكمة . بين الشر والخير . وهى بحاجة مستمرة الى داع والى توجيه نحو المستوى الفاضل فى الانسانية .

والطبيعة البشرية تتردد بين الغريزة والعقل ، بحكم كونها طبيعة حيوانية انسانية . ولذا لا يؤمن أن يطغى جانب الهوى والشهوة منها ،

---

(١) آل عمران : ١٠٤

ويسوء السلوك وتسوء العلاقات بين الأفراد . وعندئذ يكون الاستضعاف والاستذلال ، فتنقسم الجماعة الى معتد وظالم ، ومعتدى عليه ومظلوم . وبذلك يكون الخطر الذى يهدد تلك الجماعة الانسانية بالفناء .

ومن هنا كان الاستمرار فى الدعوة الى الحق ، والى القيم العليا أمرا واجبا . ووجوبه ليس من أناس معينين . انما على فريق دائر بين الأفراد . من قام به سقط عن الباقين .

والذى يقوم بهذا الواجب هو من هيأه استعداده الفطرى الى الايمان ، والى اتباع القيم الانسانية ، والى الميل الى تحمل المشقة فى سبيل الخير العام واقرار الحق فى ذاته .

وحركة التاريخ البشرى ليست أفقية ، بل هى حركة دائرية . والحوادث تعيد نفسها ، ولكن فى أزمنة مختلفة ، وبأشخاص آخرين .

فيوم أن قام الاسلام ...

كان هناك فساد وطغيان ،

وكان هناك توتر فى العلاقات بين الأفراد ، وكانت هناك مستويات متفاوتة فى البشرية .

وباستقرار الدعوة الاسلامية ، وقيام المجتمع الاسلامى ضعف الفساد والطغيان ، ثم كانت المساواة فى الاعتبار البشرى .

ولكن ما لبث بعد فترة من الزمن أن عاد الفساد من جديد ، وعاد الطغيان والظلم ، بعد أن غلبت مظاهر الحياة المادية على الأسماع والأبصار ، ورانت غشاوتها على القلوب فضعف الايمان بالله ، ثم انحرف السلوك ، وانحرفت العلاقات عن الجادة المستقيمة .

ثم فى أعقاب تردى المجتمع الاسلامى كان يلمع شعاع الايمان بالله فى مجموعة صغيرة أو كبيرة ، وفى فترة قصيرة أو طويلة ، ثم يخبو هذا الشعاع بعد لمعان ، ثم يعود من جديد الى الاشعاع ، ثم الى الخبو ... يلى أحدهما الآخر ، كما يعقب الحياة الموت ، والموت الحياة ، وكما ينسلخ النهار من الليل والليل من النهار .

... الأمر كله دائر بين المادية ، والروحية ... بين الهوى والحكمة ... بين الأنانية والروح الجماعية ...

ومن هنا كان لزوم الدعوة الى القيم العليا ، وكان استمرار هذه الدعوة أمرا واجبا . فان أهملت الدعوة ، وسيطر الهوى على القلوب ، وصـــار المجتمع الى وضع يتطلب انقـــاذه ، كان الوضع **للالزام والقهر** فى سبيل المصلحة العامة واتقاء الفتنة التى لا تصيب فريقا خاصا ، وانمـــا هى عامة وشاملة .

واذا لم يستجب أفراد المجتمع الى قوله تعالى : ((**واعتصموا بحبل الله جميعـــا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصـــبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شـــفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كـــذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**))(١) . فلا مفـــر من القيـــام بمطلوب الآية الأخرى : ((**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهمـــا على الأخـــرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله**))(٢) .

... اذا لم ينفذ الأفراد فى المجتمع الاسلامى مبادىء التضـــــــامن والتماســـك ، وهى مبادىء الأخوة والمحبـــة ، والتواد ، والتعـــاون ، والتعاطف ، فالأمر لا يحتمل الا دفع البغى والعدوان من الباغين والمعتدين فى المجتمع نفسه ، كى تعود العلاقات من جديد الى انسانيتها ، وتعـــود النفوس الى سلامها واطمئنانها .

واهمال الدعوة يصدق بعدم القيام بها أصلا ، أو بمباشرتها كحرفة ومهنة . والنتيجـــة اذا كانت سلبية فى الوضـــعين ، فان سلبيتها عنـــد الاحتراف بها أكثر خطرا وأشد ضررا على المجتمع ، كنار تطفأ بالزيت ، أو توضع فى مهب الرياح .

ويتضح الآن :

- أن الاسلام فى وضعه الأصيل دعوة ، وايمان بها ، واستمرار فيها .

- وأنه لا يلجأ الى الالزام والقهر ، ولا يلجأ الى القوة المادية الا دفاعا عن رسالته ، ومحافظة على مجتمعه .

- وأنه فى سبيل اعادة التوازن بين أفراد المجتمع وتحقيق العدل الاجتماعى يبيح من الاجراءات ــ ولو لم يكن سبق الأخذ بها ، طالما هى وفق القواعد المقررة فى أصوله ــ ما هى ضرورية لذلك .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .   (٢) الحجرات : ٩

ويرتبط جواز استخدامها وتطبيقها بمقدار ضرورة الحـــاجة اليها . وعندئذ هذه الاجراءات نظام موقوت ، ولها طابع الضرورة أو الاستثناء .

.... ولو كان الاسلام هو الاشتراكية العربية لوجب أن ينقـــل الايمان بالله من مركز الدائرة فى تعاليمه ، على أن يحل الانسان أو المجتمع مكانه فى هذه التعاليم . وعندئذ يفقد الاسلام أكبر قوة دافعة فيه . لأن أى أمر أو نهى فى الاســـلام ، كدين ، يتفرع عن وجود الله ، وينفذ فى حيـــاة المؤمن بدافع من ايمانه بالله وحده .

فلو رجع الأمر والنهى — بعـــد نقل الايمـــان بالله من مركز دائرة التعاليم — الى الانسان والمجتمع ، لم يجد باعثا على التنفيذ ، ســـوى القوة الخارجة عن الفرد ، وســـوى رقابة تلك القوة . فالفـــرد لا يؤمن بالأفراد الآخرين معه ، أو بالمجتمع الذى يضمهم جميعا ايمانا يحمله على الطاعة الذاتية ، فضلا عن التضحية بالأنانية فى سبيل هذه الطاعة .

ان ايمان الفرد بالمجتمع آنذاك قد لا يتجاوز نطاق التعاون فى سبيل تبادل المصلحة الشخصية ، أو نطاق « المحبة » فى سبيل تحصيل المصلحة الخاصة . ولكنه لن يصل بحال الى « الايثار » و « انكار الذات » . والذى يحمل على الايثار فى الانسان هو الايمان بالله لا غيره .

... وطالما الايمان بالله على هذا الافتراض جانبى فى نظـــام الحياة للانسان لا يؤتى أثره المرجو . وربما يبقى معطلا فى تصرف الانسان لا يستتبع أى أثر له . لأنه عندئذ يكون مقطوع الصلة بمجريات الأحداث ، وبمصادر التصرفات فى الانسان : اذ الذى يؤثر فى التصرف آنئذ هو الغريزة ، أو العقل .... وكلاهما ليس الله ، ولا الايمان به .

.... والقضية فى هذا ليست : قضية الاشتراكية العربية . انمـــا هى قضية الفلسفة الانسانية التى تحتكم الى الانسان ، بدلا من كتاب الله ، والتى تثق بهـــداية العقل الانســـانى ، دون حاجة الى هداية الله ، والتى تعتز بالانسان وتدافع عن استقلاله فى التدبير والتوجيه ، فى مواجهة الايمان بالله .

.... القضية فى هذا : قضية « التطور » الذى هو قانون الحياة . والتطور هو عدم الثبات والاستقرار على حال معينة . وانما هو انتقال من وضع الى آخر ، وربما يكون فى هذا الانتقال عود الى وضع أسبق .

وقضية التطور أوصلت البشرية منـــذ القرن الثامن عشر الى تمجيـــد الانسان ، ورفع الوصاية التوجيهية عنه . وهى الآن تضـــع أمام البشرية

صراع الانسان ، مع العلم ، وصراعه الآن مع الآلة : أتبقى السيادة للانسان بعقله ؟ ام تنتقل الى العلم بتجاربه ، والى الآلة بمصنعها ؟ .

ان الاسلام يقوم على أمرين :

على مصدر للقوة والدفع ، وهو الله ، والايمان به ،

وعلى رسالة وتعاليم ، تتصل بما له من مصـــدر القـــوة الخاص به ، وهو الايمان بالله .

فلو أخليت الرسالة والتعاليم من مصدر تلك القـــوة ، وعوضت بمصدر دفع آخر .. « كالمجتمع » فقلما تستقيم الصلة بينهما ، وبالتالى قلما يكون للاسلام **أثر الدين فى حياة الانسان .**

ولا يعاب على الدين أنه يعطى أهمية كبرى : لله والايمان به .

... كما لا يعاب على الفلسفة الانسانية بوجه عام أنها تعطى أهمية فائقة للانسان فى التقدير .

... كما لا يعاب على الفلســـفة الاشـــتراكية ــ وهى نوع من الفلسفة الانسانية ــ أنها تهتم بالمجتمـــع وتجعله المحـــور الذى تدور حوله .

... لا يعاب على أى واحـــد من الثـــلاثة ما يهتم به ، لأن كلا منهـــا نظام مستقل ، قصد به توجيه الانسان فى حياته الانسانية ، ولأن كل واحد منها أيضا ، بعد ذلك ، أصل منطقه وتوجيهه على ما جعله محل اهتمام خاص به .

وفى داخل اطار المذاهب الفقهية الاسلامية ــ وهى كلها تدور حول توضيح الأحكام الشرعية فى الاسلام ــ لا يعيب بعضها بعضا ما يتميز به كل مذهب من : « اعتبار » أو « أصل » استند اليه فى استنباط الأحكام ، وأدت مراعاته الى اختلاف فى تحديدها .

والذى يعـــاب هو : « التلفيق » . لأنه ضـــار بتوجيه النظم ، أو المذاهب ، أو المدارس ، التى قامت على أسس مختـــارة منها ، وربمـــا تكون هذه الأسس متناقضة فى ذاتها .

... يعاب التلفيق المذهبى ، أو المدرسى ، لأنه يلبس على العقل فهم منطقه ولأنه بالتـــالى يجعـــل التطبيق صـــعبا ، لأنه غير عملى أو غير مفهوم .

... ولو كان الاسلام هو الاشتراكية العربية لوجب أن يتغاضى نفسه عن الحاجب الخلقى فيه بالمعايير التى جاءت فى أصوله . بغض النظر عما جاء فى ملحق الميثاق من أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . فالحديث هنا عن نظام فلسفى للحكم له منطقه وأصوله ، وعن دين له منطقـــه وأصوله .. والحديث هنا كذلك ، هو من الوجهة النظرية فى مدى استيعاب الاسلام لنظام حكم الاشتراكية العربية ، أو فى مدى استيعاب هذا النظام للاسلام وأصوله .

... الا اذا أخذ نظــام الاشــتراكية العربية على أنه يمثل مرحلة « الاستثناء » فى نظام المجتمع الاسلامى ، حتى تهيأ الفرصة لاحلال الاسلام بوضعه الأصيل . وعندئذ يكون النص فى ملحق الميثاق على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام قصد منه : أن يصل اليه المجتمع على المدى الطويل رويدا رويدا ، وينزل الى الحياة العملية بالتدريج ، بعد أن ارتفع فى عزلة عنها ، طوال قرون الضعف الماضية ، التى مرت بالأمة الاسلامية .

... وبذلك تخضع عودة المجتمع الاسلامى الى مبادىء الاسلام ... الى قانون الحياة الانسانية ، الذى يقضى بالتطور الطبيعى ، دون الثورة أو الانقلاب .

ومع ذلك سواء أكانت الاشتراكية العربية مقدمة لتطبيق نظام الاسلام ، أم كانت فلسفة مستقلة تعالج شــئون المجتمع العربى فى مواءمة المبــادىء الاسلامية وجو هذه المبادىء فانها فى حاجة ماسة الى « خلقية اجتماعية » .. فى حاجة ماسة الى دعوة تعتمد على الضمير والايمان فى الطاعة لمبادئهـــا وتنفيذ هذه المبادىء ، دون ارتباط بالقانون وسلطته التنفيذية .

... انها فى حاجة الى أن تحول مبادئها الى قيم أخلاقية ، كمـــا تحول السلطة التنفيذية التى تصاحب هذه المبادىء الى رقابة ذاتية داخل نفوس الأفراد .

... انها يجب أن تنزل الى مجال الانسانية ، وتناجى الاعتبـــار الانسانى ، بجانب المنافع المادية التى ترتبت على تنفيذ نظامها بالنســبة لغالبية الشعب فى الاقتصاد القومى .

... ان الاسلام يوم وضع الجنة جزاء لمن أطاع ، والنار عقـــابا لمن عصى ، جعل مكانهما فى الآخرة ، وليس فى الدنيا . وبذلك لم تكن هنــــاك فرصــــة لتقييمها من الناس بأدنى من قيمتهـــا الحقيقية . وظل الأمل فى الحصول على احداهما ، وتجنب الأخرى ، فى قوته وفى استمراره .

ومع ذلك فقد وضع الاسلام جزاء يفوق الجنة وتعلقت به آمال كثير من المؤمنين ، وهو رضا الله والقرب منه . وهنا لم يكن الدافع على العبادة جنة الله فى آخرته ، انما كانت محبته خالصة لوجهه الكريم .

وبالنزول بالدعوة الى الاشتراكية العربية فى مجال الانسانية ، والاهتمام بالقيم المعنوية التى استهدفتها يميل دافع الطاعة والتبعية رويدا رويدا الى الجانب الانسانى ، أكثر مما يميل الى المنفعة المادية المقابلة . وهنا تسهل التضحية فى سبيلها ... وهنا تبتعد سيطرة الأنانية ... وهنا تكون « الخلقية الاجتماعية » قد وجدت .

... وبقوة هذه الخلقية الاجتماعية ، أو بضعفها ، يرتبط مصير الاشتراكية ، قبل أن يرتبط بقانون ، أو بعهد ، أو بشخص .

... وبتكون هذه الخلقية الاجتماعية أيضا ، لا تكون هنا اطلاقا سمة لما تنعت به الاشتراكية الشيوعية من : أنها نفاق للجماهير من جانب ، وخداع لهم من جانب آخر . لأنها جعلت الكسب المادى وحده والأمل فيه خالصا ، اغراء على قبولها ، ودفعا على الأقل على عدم تحديها هناك .

والخوف اذا كان ضروريا لمعالجة الأوضاع المنحرفة ، والالزام اذا اقتضته الحكمة للانقاذ — فان الرغبة والاختيار أوفى بالمحافظة على المطلوب وأكثر مساندة له على الاستمرار .

وكلما كانت الرغبة ، وكلما كان الاختيار مرتبطا بغير محسوس ... مرتبطا بمعنوى ، كقيمة من القيم ، كلما كان أطول فى البقاء وأقوى فيه .

* * *

ولو قيل العكس : ان الاشتراكية العربية هى الاسلام لوجب :

● أن تعتبر نظامها موقوتا ، يعود بعد الفترة اللازمة لاعادة التوازن فى المجتمع الى نظام الدعوة والاقناع .

● وأن تعتبر نظامها نظاما أخلاقيا ، لا يعتمد على القانون التشريعى والقوة المنفذة له ؛ بل يعتمد بالأولى على الضمير والخشية من الله .

● وأن يكون محور نظامها هو : الايمان بالله وحده ، وعنه تتفرع — كما ترجع اليه — كل الاجراءات والتشريعات المتعلقة به ، وأن تكون

المسئولية الأولى فى التنفيــذ وعدمه ، أمام الله وحده ، لا يبرأ منهـــا فرد الا اذا أدى واجبه طبقا لما أنزله الله فى كتابه .

وبعد ذلك : ليس من صالح الاسلام أن ينعت بالاشتراكية العربية ،

وليس من صالح الاشتراكية العربية أن تنعت بالاسلام ،

ولكن من صالح كل منهما أن يؤازر الآخر ويسانده .

... ليس من صالح الاسلام أن يكون اشتراكية عربية : فقد يشتبه الأمر ويروج الباطل ، ويدعى المدعون : أن الاســـلام كمـــا هو اشتراكية عربية ، هو اشتراكية شيوعية أيضا ! .

... بينما الشيوعية تنكر الدين أى دين ، وتنتقص رجاله ، وتنـــظر اليهم على أنهم يؤآزرون احتكار المال للسياسة ، ولحرية الانسان .

... وليس من صالحه أيضـــا : أن يكون اشـــتراكية عربية ، لأنه عندئذ سيجر على نفسه كدين ، وعلى الاشتراكية العربية كفلسفة ، ويلات المعارضة من صنوف مختلفة تضر ولا تنفع ، وتسىء ولا تحسن .

... وليس من صالح الاشتراكية العربية أن تكون الاسلام : **لا : لأن مبادئها واجراءاتها لا يؤيدها الاسلام .** ولكن ان هى ادعت أنها الاسلام ، أو ادعى لها : أنها والاسلام سواء ، ستبطىء حركتها فى السير والتنفيذ ، وسيدخل مجالها عندئذ من يدعون لأنفسهم أنهم قوامون على الاسلام ، وهم غرباء عنه : فى فهمهم له ، وشرحهم اياه ، وفى تطبيقهم لمبادئه . وكل ما لهم من الاســـلام أنهم انتســـبوا الى كتب المؤلفين عنه ، فتـــرة من الزمن لم يستوعبوها ولم يتصلوا عن طريقها اتصالا مباشرا بالاسلام فى كتاب الله ، وسنة رسوله الصحيحة .

... ان ادعى لها أنها الاسلام ، سيتيح هذا الادعاء الفرصـــــة للاستعمار كذلك أن يدخل دخولا مقنعا باسم الاسلام لتقييم نظامها ولنقده ، والتعليق عليه ، بغية بلبلة الأفكار فى الداخل والخارج .

والاستعمار لا يعدم آنئذ أن يجـــد مركزا فى الوطن العـــربى ، أو فى العالم الاســـلامى يخرج منه صـــوت له ، ولا يعدم واحدا أو مجموعة من المحترفين بالاسلام تضع نفسها فى خدمة أهدافه .

ان ضعف المجتمع الاســـلامى فى صلته بالاســـلام فى عهود الضعف الماضـــية ، أو فى عهود الركود التى سبقت الوقت الحـــاضر لم يكن اطلاقا بسبب مبـــادىء الاســـــلام ، وعدم صلاحيتها للتطبيق فى عهد البخار ،

والكهرباء ، ثم على عهد الذرة بعد عهد الابل والصحراء ــ كما يحـــاو للمستعمرين أن يكرروه ــ وانما بسبب ضعف المشتغلين بالاسلام وبالدعوة الاسلامية ..

وضعف المشتغلين بالاسلام كان بسبب بعدهم عن المصدر الأصيل للاسلام وهو كتاب الله ، ووقوفهم عند حد الفكر الذى لا يعرف الا التبعية والايمان بها ، ولا يعرف الا العزلة عن حياة المجتمع وعما يجرى فيه من أحداث ، فنسج لنفسه تفكيرا يقوم على الافتراض أكثر مما يقـــوم على الواقع ..

.... ضـــعفهم كان بسبب ان حرموا على أنفســـهم ، وعلى غيرهم أن يتفقهوا ، كما تفقه الأولون ، لشعورهم بالنقص ، وعدم ثقتهم بعقولهم .

... والبعض منهم كانت تغلب عليه الحيطة أو الخشية من الوقوع فى الخطأ ، ان خرج عن مدار التبعية .

.... والبعض الآخر كان يغلب عليـــه الخوف من السلطان ، أو الأمل فى عطائه ، فآثر النفاق فى « القياس » أو آثر الانزواء والاكتفاء بالترديد دون التجديد ، وفى اجمالى معمى ، دون توضيح أو تفصيل .

ولم يزل وضع المشتغلين بالاسلام أو المنتسبين الى دعوته ، أينما كانوا ، تكونه هـــذه الرواسب فى العقول والنفوس ، وهى كفيلة بتجميد نظـــام الاشتراكية العربيـــة فى أفهام الناس ، وفى ايمانهم بهـــا ، ان ادعى لهـــا : أنها الاسلام .

وسيكون الاسم وحده وهو : « الاشتراكية » مثاراً للاحتمال والتأويل والتخريج ، بما يجعلها من دعوة الشـــيطان ، وليست اســـتجابة لنـــداء الايمان ! ! .... سوف لا تجعل فقط اشتراكية فى المال ، بل ايضاً اشتراكية فى النساء والأولاد .. !

ولكن من صالحهما معاً أن يؤيد كل منهما الآخر .

فتطبيق مبادىء الاشتراكية العربية هى ممارسة عربية لكثير من المبادىء الاسلامية فى الحياة الانسانية ، وان لم تكن تحمل اسمه . وهـــذا انتصار للمبادىء الاسلامية على اية حال .

... وشرح الاسلام لاجراءات الاشتراكية ومبادئها على : أنهـــا مما يرحب هو بها فى مثل الظروف التى قامت فيها ، وبسببها ، الثورة المصرية

سنة ١٩٥٢ ... يمكن لهذه المبادىء من أن ترد حق الأمة المصرية فى أجيالها القادمة ، وتدرب على الأخذ بهذه المبادىء فى حياتها . وهذا انتصار للاشتراكية العربية .

... ويوم يعلن : أنها الاسلام فيما بعد ، أو هى والاسلام سواء ، لا يكون الاسلام غريباً فى بلده كما هو الآن .

ان نظام الحكم الديمقراطى فى بعض البلاد العربية هو النظام الديمقراطى الغربى ، وهو النظام الراسمالى . والرأسمالية فى توجيهها ، واتجاهها ، وفى صورة أمرها الواقعى لا تتفق مع الاسلام . فالحرية الفردية فى مباشرة المال فيها حرية مطلقة لا تحدها الا المصلحة الشخصية الفردية . ومنذ بدء الخليقة قيدت رسالة السماء هذه الحرية للمصلحة العامة . وفيما يحكيه القرآن الكريم عن آدم وحواء فى قوله تعالى :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »(١) .

... توضيح لمشيئة الانسان ، وأنها ليست مشيئة مطلقة . ففى الوقت الذى منحهما الله المشيئة فى الأكل ... قيدهما بعدم القرب من الشجرة المعينة ، مما يدل على عدم انطلاق المشيئة الفردية فى غير حدود .

وفى الرسالات الالهية المتعاقبة ، منذ هبط آدم من عليائه الى الأرض ، تذكير : بأن الحرية الفردية مكفولة فى حدود المصلحة العامة ، وهى مصلحة الآخرين .

... وفى رسالة شعيب الى أهل مدين كانت العناية مركزة بوجه خاص على تقييد المشيئة الفردية فى مباشرة المال بمصلحة الآخرين ، أى أنها كانت معنية بازالة آثار الراسمالية القائمة اذ ذاك من : فساد وطغيان ، التى آل اليها وضع مباشرة المال فى التجارة بين أهل مدين ، وباعادة الوضع الطبيعى فى هذه المباشرة ، وهو العدل فى ايفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم ، ثم تحذيرهم من مغبة الاستمرار فى المباشرة الفردية اللامحدودة فى المعاملات المالية .

---

(١) البقرة : ٣٥ ، ٣٦ .

يحكى القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

((والى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسناً ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب)) (١) الى قوله : **((قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز))**(٢) .

.... ثم الاسلام نفسه ، كثورة على الطغاة المستبدين ، ثورة على الرأسمالية ، وان لم يكن الوضع معروفاً بهذا الاسم عندما جاءت هذه الدعوة الاسلامية على أنه وضع : **الرأسمالية** ..

ولكن كل العناصر التى تشكل نظام الرأسمالية كانت هى تلك التى شكلت وضع المجتمع الجاهلى وقت أن جاء الاسلام :

● كان هناك طغاة مستبدون بسبب المال أو الشرف والجاه .

● وكان هناك فساد ، وعبث وترف ، واسراف من جانب ، وتضييق وعسر فى الحياة من جانب آخر .

● وكان هناك مستضعفون مستذلون يباع بعضهم ويشترى ، بحيث كان المال أصل الحياة وكانت الانسانية تبعاً له .

● وكان هناك الشرك ، ووجوده كاف فى الأمارة على الذلة والمهانة التى سقطت فيها انسانية الانسان ، وبعدت عن الحرية الفردية والجماعية معاً .

واذا كان ذلك كله بصورة أو بأخرى ، مما يجر اليه النظام الرأسمالى من مفاسد واهدار لكرامة الانسانية فالنظام الاشتراكى العربى يدعو الى ما دعا اليه الاسلام فى حث المستضعفين على ايمانهم بحقهم فى الحياة البشرية ، وسعيهم الى حقهم ودفع الاعتداء والظلم الواقع عليهم ، ممن استضعفهم واستذلهم . ولذلك هو أولى بالقول وأوجب فى الاتباع .

---

(١) هود : ٨٤ — ٨٨ (٢) هود : ٩١

ان الدعوة الى الايمان بالله — لو أخذت مأخذ الجد والاهتمام وبأسلوبها القرآنى السليم — أن تعيد الى النفوس سلامتها ، والمودة الى العلاقات ، والى القلوب عمرانها به .

ولو اراد المجتمع الاسلامى فى الوطن العربى ، أو فيما وراءه أن يعود الى التطبيق العملى للاسلام فعليه أن يأخذ نظام الاشتراكية العربية كخطوة ممهدة .

ان تطبيق الاسلام دفعة واحدة يكتنفه عقبات عديدة :

أولى هذه العقبات وأكثرها تعقيداً تلك الرواسب التى تراكمت فى المجتمع الاسلامى بسبب الضعف قروناً ، وبسبب الاستعمار فترات أخرى .

وكل مجتمع اسلامى أصيب بلون أو بآخر من ألوان الاستعمار ، وبفترة طويلة أو قصيرة من فتراته . وكل مجتمع اسلامى لم يصبه الاستعمار الا لضعفه فى فهمه للاسلام ، والا لضعفه بسبب انقسامه ، والا لغلبة الأنانية على أفراده .

والرواسب التى تراكمت فى المجتمع الاسلامى ، فى أى مكان فى عالمنا اليوم ، هى :

● تقاليد وعادات لا يقرها الاسلام .

● واتجاهات فكرية ، وسياسة ، أجنبية عن اتجاهات الاسلام ومبادئه .

● واستمراء للنفاق فى السلوك ، وفى التفكير ، بسبب الضعف والاستذلال لفترة طويلة .

● وحرص على الذات عبأ النفوس بحيث لا ترعى قيمة أعلى من قيمة الفردية فى التصرف والعمل .

● ثم بالاضافة الى ذلك كله : تكتل صليبى ، والحاد علمى معاً ، ضد الجهر بالاسلام أو ضد السعى نحو تطبيقه .

● وبعد ذلك ، أو قبله ، هزال واضح متعدد الجوانب فيمن يظنون أن الدعوة الى الاسلام قد وكلت اليهم ونيطت بهم .

والمجتمع الاسلامى فى أى مكان لا يعيش فى عزلة عن المجتمعات الأخرى ، والروابط بينه وبين تلك المجتمعات روابط لا تنفصم .

... اذ الاستعمار بأسلوب القرن التاسع عشر قد رتب فى فترة استعماره ربط المجتمع الاسلامى فى اقتصاده ، وثقافته ، وعلمه ، وفنه ، بما له هو ، فأذهب استقلاله . ويوم أعطاه الاستقلال السياسى منحه اياه وهو يعلم بتاء التبعية والارتباط به الى وقت آخر طويل ... فى مجال الاقتصاد ، والفكر ، والثقافة ، والنظم الادارية ، والسياسية ....

... والاستعمار بالأسلوب الجديد وهو الاستعمار الأيديولوجى — ومن ورائه الضرورات الاقتصادية تؤازره — قوى فى دعوته ، وقوى فى ضغطه ، وقوى فى وسائله . وبذلك لا يترك فرصة للقيم الاسلامية باسم الاسلام كدين — تأخذ طريقها فى المجتمع .. وفى اعادة بناء المجتمع الاسلامى بناء قوياً ، يواجه الأيديولوجيات المعاصرة وأثرها على نفوس الشباب فيه .

ومن هنا كانت المصلحة فى اعداد الدعاة ، والنزول بالمبادىء الاسلامية جنباً الى جنب ، تدريجيا الى مجال التطبيق فى الحياة ، حتى تكتمل ، ويكون لها توجيه موحد .

وفى مقدمة هذه المبادىء : الولاء والاخلاص فى العلاقات ، تحقيقاً لقوله تعالى :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »(١) . ولقوله : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء »(٢)** .

.... انه فطرة الله التى فطر الناس عليها :

ان الاسلام — بعد كل هذا — جملة من التعاليم تكون نظاماً مستوعبا لنشاط الانسان وسلوكه فى حياته ، ويعطى التوجيه فى كل جانب من جوانبها .

وهذا النظام وحدة متماسكة ، يتصل بعض أجزائه ببعض فى القيمة والاعتبار .

... وفى الفاعلية فى حياة الانسان . وهو اما : أن يقبل كله ، أو يرفض كله عند التقييم . ولكنه لا يقبل التبعيض بحال .

والقرآن عندما يقص موقف البشرية منه يريد أن يذكر :

● أن هذا الموقف طبيعى ، وأنه من أجل ذلك يتكرر ، وأنه لا ينتظر أن يتخلف .

---

(١) التوبة : ٧١ (٢) آل عمران : ٢٨

● ومع كون هذا الموقف طبيعيا ، فانه لا يغير من حقيقة الدين شيئاً لأن قيمته ذاتية ، لا تتغير بتغير الموقف منه .

وقد عدد القرآن هذا الموقف :

فكان هناك المؤمنون ، وكان هناك الكافرون . وكان المذبذبون بين الطائفتين ، وهم المنافقون .

... وسيظل هذا الموقف فى أنواعه الثلاثة ، طالما يوجد كتاب الله .

... والذى يتغير هم أفراد كل نوع منها فى عددهم ، وفى فاعليتهم وأثرهم .

وكما أن الاسلام وحدة واحدة لا تقبل التبعيض ، كذلك اسمه واحد لا يقبل التغيير وهو : « الاسلام » . لأن الاسلام اسم لدين الله ، منذ أن أوحى الله برسالته ، ومنذ أن اختار رسولا من البشر : **((ان الدين عند الله الاسلام))(1) .**

... فهو اسم لما أوحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم ... كما هو اسم لما أوحى به الى ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، من قبل ... وسيظل لدين الله اسم . « الاسلام » ، طالما بقى الدين وبقى كتابه .

... هو الاسلام فى اسمه ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها فى موضوعه ، وفى هدايته للطبيعة البشرية ، التى جاء هو وفقاً لخصائصها . ولا تبديل لكلمات الله .

والفصل قائم — وسيظل قائماً — بين خلق الله ، وصنعة الانسان . والله ولى أمره وخلقه ، والانسان رب صنعته وعمله .

... وليس الانسان بصنعته بمنافس لله فى خلقه وتدبيره . لأنه لا يستطيع ذلك . وانما هو بهداية عقله — والعقل من خلق الله — يسعى بصنعته العقلية الى الخير، عندما يرى طريق الله قد سد ، الا على قوم لا يعرفونه وهم وقوف فيه ... لا يستطيعون الحركة فيه ، ولا يتركون غيرهم ينتفع بتعبيده فى السير والحركة معاً .

... والانسان عندئذ بفلسفته مجتهد يستهدف الصواب ، وان كان قد يقع فى الخطأ . وهو اذ يجتهد على أصول من السنن العامة للحياة ، التى لا تتغير ولا تتبدل ، وهى سنن : العدالة ، والحرية ، والأخوة فى البشرية .

---

(1) آل عمران : ١٩

وهى قيم لا يأتى الدين فيها بجديد ، الا ما يحفظ لها تحقيق معانيها ، أو يضمن لها البقاء فى اطار قيمتها .

ويوم أن تتضح للفلسفة هذه القيم فى الدين ، يوم تقبل على الدين نفسه وتحتضنه ، ولكن بعد أن تبعد عنه من سد طريق الله بوقوفه فيه ، ولم يعرف هدايته لنفسه ولغيره ، وهم المحترفون به .

والاسلام مرة أخرى — لأنه نظام مستقل عن أى نظام فلسفى — كانت نظرته الى الملك والمال تختلف عن نظرات الاتجاهات الفلسفية المعاصرة .

تختلف عن نظرة الرأسمالية التى تركز على الفرد وحده ،

وتختلف عن نظرة الاشتراكية التى تركز على المجتمع وحده .

ترى ملكية المال لله ، والانسان يعمل فيه ، لا كأجير ولا كعامل ، ولكن كنائب للمالك مستخلف على ماله . له تصرف المالك ، وعليه رعاية ما ينصح به .... له كل حقوقه ، وعليه أن لا يتعدى الحدود التى رسمها له .

وما ينصح به المالك الحقيقى للمال — وهو الله — هو :

- أن يكون للمحرومين منه نصيب فيه ،
- وللمصلحة العامة نصيب كذلك .

والحدود التى رسمها هى : أن يبقى المال وسيلة للنفع والخير ، وليس سبباً للاستغلال أو الظلم والعدوان .

وبذلك لا تركز نظرته على الفرد وحده ، ولا على المجتمع وحده . كما لا تكبت الحافز الشخصى فى الفرد ، ولا تتركه يصير به الى الطغيان .

لأن الله المالك الأصيل للمال ، كانت الخشية النفسية منه لدى الفرد هى التى تقوم بدور الرقابة على تصرفات الفرد ذاته ، وكان ضميره هو الذى يدفعه الى التنفيذ .

وبذلك يتوفر للمجتمع الانسانى ما يدفع به حاجة المحتاجين ، كما يتوفر له نوع من الرقابة لا يكف عن المداومة عليها ولا يتخلف فيها بحال . وهو النوع الذاتى لدى المؤمنين .. فى التفكير ، والتقييم ، والتطبيق .

والسلامة فى بقاء أى نظام يحدد سلوك الانسان لضبط علاقاته مع غيره — ان ديناً أو فلسفة — هى فى استقلاله عن أى نظام آخر . وتقييم أى نظام هو : من أصوله الخاصة التى تأسس عليها ، ومن الأهداف التى جعلها غاية له ، دون أن يحتكم الى أصول نظام آخر أو الى أهدافه .

* * *